

بقلم

فريدة النقاش



قصية

للشاعرة

نبية أرشيدات

انشغلت في الأسابيع الماضية بإعادة قراءة سير أصدقاء اعزاء ومناضلين من أجل التقدم والديمقراطية في كل من مصر وسوريا والأردن، وجاءت مذكراتهم رؤى طازجة وصانقة لا لحسب لنضالهم الذي امتد لما يزيد على ستين عاماً إذ تنوعت إسهاماتهم على الصعيد الفكري والعملية وقضوا سنوات من أعمارهم في السجون ومنافي ومصادرة أرواحهم وتشقت أسرهم، وإنما هي أيضاً سجل لأحزابهم ولأوطانهم ذاتها ولحركة التحرر والنضال من أجل الاشتراكية في هذه الأوطان.

في مصر أعدت قراءة السيرة الذاتية لمحمد الجندى، وفي الأردن أعدت قراءة السيرة الذاتية للدكتور عبد الرحمن شقيف، ومن سوريا أعدت قراءة السيرة الذاتية للدكتور «نبية أرشيدات»، أوراق ليست شخصية، وهناك مجموعة أخرى من سير المناضلين الاشتراكيين على امتداد الوطن العربي سوف أقرأها معكم تباعاً لكي نستخلص ما فيها من دروس ومن خبرات إنسانية ومعانٍ وقيم عليا تنخر بها حياتهم وأعمالهم هم الذين لم يبخلوا بشيء بقاها عن المبادئ التي اختاروها ووهبوا لها حياتهم.

ولد الدكتور «نبية أرشيدات» في إربد بالأردن ثم تفرغت أسرته ليعيش بعضها في فلسطين ولبنان وسوريا ويعمل هناك، وفي الجزء الأول من السيرة نعرف إلى أي حد كان تقسيم سوريا الكبرى عملاً مفتعلاً واستعماريًا يستهدف تمريق المنطقة وتحويلها إلى دويلات صغيرة يسهل التحكم بها.

انتمى والده لحزب الاستقلال، وفي طفولته الأولى شاهد تطويق بيتهم بالعسكر وكان ذلك المشهد هو أول محرض لوعيه السياسي ضد مخاطر المعاهدة التي يريد الإنجليز فرضها على الأردن، وفي المرحلة الثانوية جاءه للترك الأستاذ حسني فريز وكان إذ ذاك مبعداً من مدرسة السلط لأنه كان شاعراً وطنياً تقدمياً، وارتبط الشعر في سيرته بالوطنية والكفاح ضد الاستعمار والاستغلال وكان أن كتب هو نفسه مسرحية شعبية باسم «الرفيق المغتصب»، وحظت سنوات التكوين في حياته باسماء أعلام من قادة الحركتين الوطنية والثقافية في المنطقة كلها لا في الأردن وحدها وبشكل خاص الزعماء الوطنيين الفلسطينيين الذين قاوموا الاحتلال البريطاني والاستيطان الصهيوني معاً، ويحكي لنا كيف حول النضال الشعبي والثورات المتعاقبة في المنطقة قاطع طريق إلى مناضل وطني، وحين مات الملك الوطني فيصل في سوريا عام ١٩٣٣، اجتمعت وفود من مختلف البلدان العربية في حيفا وسار موكب ضخم كبير من حيفا إلى بغداد، فلم تكن هناك حدود بين البلدان العربية ولم تكن فلسطين قد ضاعت.

كانت مدرسته تحتفل دائماً في التاسع من شعبان وهو يوم الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين ضد الحكم العثماني، وفي هذا الاحتفال تلقى كلمات وطنية ضد المستعمرين، وتوضح حياة الحلفاء الإنجليز والفرنسيين الذين قسموا بلادنا بموجب اتفاقية «سانكس بيكو»، وشد وعد بلفور المشؤم الذي أصدرته بريطانيا للسماح لليهود بإقامة دولتهم وتتوالى القصائد التي تمجد النضال في سبيل الحرية.

درس «أرشيدات» الطب في دمشق وعمل في مستشفياتها وكان عمله المجاني في إغاثة الفقراء من المرضى أكثر كثيراً من عمله المأجور وهو ما لم يلقه في مذكراته خجلاً وتواضعاً ولكنني أعرفه.

وكنتم قد عرفت بنفسى أيضاً كيف تحول في نظر الناس إلى قديس، وحين قرر أن يعود إلى الأردن أضرب المرضى في المستشفى الذي كان يعمل به حتى لا يغادر.

وهو يحكي كثيراً عن زيارته للاتحاد السوفيتي والصين وعدد من البلدان الاشتراكية في ذلك الحين ضيفاً على حكوماتها ومنظماتها الديمقراطية ولكن هذه الضيافة لم تمنعه من أن يوجه النقد للمظاهر السلبية التي اصطدم بها في هذه البلدان فرفض موقف التأييد الذي أبداه السوفييت لحاكم لاسد في شيلي وعبر عن رأيه للمسؤولين.

وحين رفعت الصين شعار «القفرة الكبرى إلى الأمام» ومنها تجاوزت بريطانيا في إنتاج الفولاذ خلال خمسة عشر عاماً، ومنها استخدام الطرق المحلية في صهر الفولاذ والحديد وجه انتقادات شديدة لهذا الأسلوب وكان يعمل في القسم العربي لإذاعة بكين وتبين بعد ذلك أن الفولاذ المصنوع بالطرق المحلية غير صالح للصناعات الكبيرة.

ويقول بعد خبرة طويلة في البلدان الاشتراكية السابقة، «اليوم عندما ندرس أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي فإن السبب الرئيسي ليس الماركسية كما يدعي كتاب الإمبريالية والرجعية، بل السبب هو تحنيط الماركسية ومنعها من التفتح أكثر فأكثر، والحوول دون ما قاله «إنجلز» عندما أشار إلى أنه يجب إعادة النظر بالنظرية عند كل اكتشاف علمي جديد فما بالك بالوف بالكتشفات العلمية المهمة التي حصلت منذ أيام «إنجلز».

سوف يجد السينمائيون وكتاب الدراما التلفزيونية في هذه الأوراق التي ليست شخصية مادة شديدة الثراء لعملهم ناهيك عن الشخصية الغدة لطبيب ومناضل وهب عمره لميدته ولوطنه، وتشكل رحلته بذاتها دراما كبرى عنوانها «الغطاء بلا حدود» فتحية له.